

معركة حطين

د. محمد حسين محاسنة

حطين مدينة بفلسطين بين أرسوف وقيسارية وبها قبر النبي شعيب عليه السلام⁽¹⁾، وفيها حدثت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي وبين الفرنج بقيادة ملك مملكة بيت المقدس جان لوزجان سنة 583 هـ / 1187 م، وقد هيات مجموعة من الظروف لقيام معركة حطين أهمها قيام أرناط أمير الكرك (رينالد شاتيون) بغزو الحجاز سنة 578 هـ / 1182 م، وقيامه بالاعتداء على قوافل التجار والحجيج المتجهة إلى الديار المقدسة، بالإضافة إلى الصراع الذي حدث بين أمراء الفرنج على الحكم الأمر الذي يساعد المسلمين على تحقيق نصر كبير ضد الفرنج.

ففي سنة 578 هـ / 1182 م أقدم البرنس أرناط أمير الكرك الفرنجي على القيام بمشروع يستهدف طعن الاسلام والمسلمين بغزو الديار المقدسة⁽²⁾، وتدنيس الحرمين الشريفين في مكة والمدينة المنورة.

وربما توهم أرناط أنه سيتمكن من تحقيق هذا المشروع، وبناء أمجاد عظيمة تؤهله لأن يصبح سيد أمراء الفرنج في المشرق واعتلاء عرش الممالك الفرنجية في بلاد المسلمين، فضلا عن أنه سيحتكر تجارة الشرق الأقصى، إذا نجح بغزو الحجاز.

وبدأ أرناط مشروعه بالتوجه إلى أيله على البحر الأحمر وحمل معه سفنا بحرية صنعها في امارته ليستخدمها في البحر الأحمر ولتسهيل عليه القيام بعمليات عسكرية عن طريق البحر، وبعد وصوله قام بتركيب السفن التي كانت قطعاً مفككة حملها على الجمال، وزودها بالرجال وآلات القتال اللازمة، فسيطر بواسطتها على قلعة العقبة⁽³⁾ والتي كانت تعرف باسم (جزيرة فرعون) لانها تسهل الاحتفاظ بايلة التي كانت مركزاً لحماية المنطقة.

- (1) ياقوت الحموي : معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج 2، ص 273.
- (2) انظر أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجليل، بيروت، ج 2، ص 35، يوسف درويش غوانمة : إمارة الكرك الأيوبية، (عمان 1980 م) ص 127.
- (3) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الفكر (بيروت 1978 م) ج 9، ص 159، أبو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين، ج 2، ص 35، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة 1956 م) ج 1، قسم 1، ص 78، سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو مصرية (القاهرة 1963 م) ج 2، ص 786.

وأبحرت الحملة الفرنجية عبر البحر الأحمر وأغارت على ميناء عيذاب المصري المواجه لمدينة جدة على ساحل البحر، وقام الفرنج بنهب مجموعة من السفن التجارية القادمة من اليمن والهند، واعتدوا على مراكب الحجاج، فهجموا على مركب قادم من جدة وقتلوا كل من فيه⁽⁴⁾.

لم يكتفِ الفرنج بهذا وإنما توجهوا بسفنهم إلى الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى الحجاز حتى وصلوا منطقة الحوراء⁽⁵⁾ على مسيرة يوم واحد في المدينة المنورة⁽⁶⁾.

إن مشروعا خطيرا كهذا سيجعل المسلمين أمام اختيار صعب، فقد أثار هذا العمل المسلمين في كل مكان ضد الفرنج، وتنادوا لوقف الخطر الداهم لقبائلهم وأقدس بلادهم. فأصر العادل أخو صلاح الدين إلى اعداد اسطول قوي في البحر الأحمر تولى قيادته الحاجب حسام الدين لؤلؤ وهو متولي الأسطول الاسلامي في مصر، فبدأ بالتوجه إلى أيله للقضاء على مراكب الفرنجة فيها حتى لا تبقى خطرا يهدده من الخلف عندما يتابع سيره لملاقاة الاسطول الموجود على سواحل الحجاز.

ظفر حسام الدين لؤلؤ بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها⁽⁷⁾، ثم تعقب السفن الفرنجية إلى عيذاب وسواحل الحجاز، وفاجأ الفرنج في الحوراء فأخذهم على حين غرة ودمر أكثر سفنهم، فهرب من فيها ولادوا بالجمال طلبا للنجاة، فاستخدم حسام الدين ورجاله خيولا أخذوها من العربان وطاردوا بها الفرنج بين الجبال حتى أسروهم جميعا⁽⁸⁾، وبعثوا بهم إلى القاهرة حيث تم استعراضهم في شوارعها تحيط بهم الأبواق والطبول، ثم قتلوا عبرة لغيرهم⁽⁹⁾.

ساعات الأوضاع الداخلية للفرنج كثيرا بوفاة الملك بلدوين الخامس في عكا سنة 582 هـ/ 1186 م، وكان بلدوين قد توج بوصية من خاله بلدوين الرابع وجعل الوصاية عليه لأمير

(4) ابن جبير : الرحلة، دار صادر (بيروت 1988 م) ص 34، ابن كثير : البداية والنهاية، دار الكتب العلمية (بيروت 1988 م) ج 12، ص 332، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، قسم 1، ص 79.

(5) الحوراء منطقة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر في منطقة الحجاز كانت تنزل فيها السفن القادمة من مصر إلى الحجاز باتجاه المدينة المنورة (انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج 2، ص 316).

(6) انظر ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب (القاهرة 1957 م) ج 2، ص 127، أبو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين، ج 2، ص 37، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، قسم 1، ص 79، ستيفن رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة (بيروت 1968 م) ج 2، ص 706-707.

(7) ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 130، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، قسم 1، ص 78-79، يوسف غوانمة : إمارة الكرك الأيوبية، ص 132.

(8) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 160، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 37، وانظر Lane-poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, (Beirut : 1964), p. 176.

(9) ابن جبير : الرحلة، ص 34، 35، وانظر ستيفن رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 707.

طرابلس الكونت ريموند⁽¹⁰⁾ لأنه كان طفلاً صغيراً لم يبلغ التاسعة من العمر، ومع هذا فقد توفي قبل أن يمضي عام واحد على تنويجه فسارعت أمه سبيلا لإعلان نفسها ملكة بتأييد من زوجها جاي لوزجنان وأرنات صاحب الكرك وهرقل بطريرك القدس.

أما ريموند أمير طرابلس فقد أقنعه الصنجيل جوسلين بالتوجه إلى طبرية للاجتماع إلى بارونات المملكة بعيداً عن مؤامرات البطريرك⁽¹¹⁾، غير أن جوسلين غدر به فأرسل جيشاً احتل صور وبירות وبقي هو في عكا حتى أعلن سبيلا ملكة، ثم أرسل جثمان الملك في رعاية جماعة من الداوية إلى بيت المقدس.

وقام البطريرك هرقل بتنويج سبيلا وزوجها جاي لوزجنان على مملكة بيت المقدس⁽¹²⁾ بمساعدة فرسان الداوية⁽¹³⁾ وتأييد البرنس أرنات، ثم قدم أمراء الصليبيين إلى بيت المقدس لإعلان الولاء والطاعة لملكها الجديد جاي لوزجنان باستثناء ريموند أمير طرابلس وبوهمند أمير انطاكية، فقد بقيا على موقفهما العدائي من لوزجنان.

أمام هذه الأحداث أخذ ريموند في التقرب من صلاح الدين وطلب معونته فوعده صلاح الدين بالنصر⁽¹⁴⁾. وحذا حذوه بوهمند الثالث أمير انطاكية فجدد الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين⁽¹⁵⁾.

كما اضطربت أمور مملكة بيت المقدس الداخلية، وتجرأ أرنات أحد الأمراء التابعين لها على مخالفة أوامر الملك الذي وجد نفسه بين أمراء لا يحسبون له حساب مع أنه سيدهم.

كان البرنس أرنات رجلاً سفاهاً محباً للسلب والنهب⁽¹⁶⁾ حتى كان أقرب ما يكون إلى قطاع الطرق واللصوص في أسلوبه الذي انتهجه ضد المسلمين خلال إمارته على الكرك.

وكان أرنات قد طلب الأمان من صلاح الدين بعد فشل حملته على الحجاز وعقدت على اثر ذلك هدنة ما بين المسلمين والفرنجة، فأمنت الطريق بعد ذلك وصار بإمكان القوافل أن تنتقل آمنة بين الشام ومصر والحجاز عبر الصحراء الاردنية⁽¹⁷⁾.

(10) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 2، ص 174.

(11) ستيفن ونسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 722.

(12) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 68.

(13) انظر : Besant. palmer : Jerusalem, the City of Herod and Saladin, (London 1899), p. 384.

(14) العماد الكاتب : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 68، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9،

ص 174، ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 185، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1،

قسم 1، ص 12.

(15) سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج 2، ص 899.

(16) انظر : King E.J. : The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, (London 1931), p. 111.

(17) ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 185، سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج 2، ص 797.

وفي سنة 582 هـ / 1187 م ورغم الهدنة القائمة إلا أن أرناط وعلى عادته في الغدر والخيانة قام بالاعتداء على قافلة تجارية كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق، وقد اغرته حمولة القافلة بما فيها من نفائس وثروات طائلة، فنصب لها كميناً وتمكن من الاستيلاء عليها وسلب كل ما فيها من مال وسلاح، ثم ألقى رجالها أسارى في حصن الكرك وعاملهم بوحشية وسامهم سوء العذاب⁽¹⁸⁾.

أرسل صلاح الدين إلى أرناط يطلب منه إطلاق سراح الأسرى ورد الأموال التي سلبها من القافلة وهدده بسوء العاقبة إذا لم يستجب لطلبه، فأبى أرناط ذلك وبلغ من صلفه وإصراره على الإساءة للمسلمين أن رد على رسل صلاح الدين بقوله : (قولوا لمحمد يخلصكم)⁽¹⁹⁾، وأغضب هذا الرد صلاح الدين، فطلب إلى ملك بيت المقدس التدخل لإطلاق سراح الأسرى والأموال المسلوقة، لكن أرناط أعرض عن ذلك، واستخف بملك بيت المقدس، وعندها لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب لإطلاقهم ولتأديب البرنس أرناط، ونذر أن يقتله إن ظفر به⁽²⁰⁾.

بدأ صلاح الدين يستعد للقيام بعمل عسكري، وأعلن التعبئة العامة في أرجاء المملكة الإسلامية التابعة له، واستنفر الناس للجهاد؛ فكتب إلى الجزيرة الفراتية والموصل ومصر وجميع ولايات الشام الإسلامية يأمرهم بالتجهز للجهاد ويحثهم عليه⁽²¹⁾، فتوافدت إليه جموع المجاهدين من كل حذب وصوب من بلاد المسلمين.

أكمل صلاح الدين استعداداته وخرج من دمشق في المحرم سنة 583 هـ / آذار سنة 1187 م على رأس جيش كبير اتجه به جنوباً حتى وصل منطقة إلى الشمال الغربي من حوران تعرف برأس الماء⁽²²⁾، فقلد ابنه الأفضل قيادة القوات الإسلامية وأمره بالبقاء هناك لتجتمع إليه باقي الامدادات الإسلامية، بينما توجه هو إلى بصرى وخيم في مكان يعرف بقصر السلامة انتظاراً لعودة الحجاج الذين خشي عليهم غدر أرناط، وكان مع هذه القافلة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، والدته أخت السلطان صلاح الدين⁽²³⁾.

(18) ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 174، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 75.

(19) ابن واصل : مفرج الكروب عن أخبار بن أيوب، ج 2، ص 194، ابن سعيد : النجوم الزاهرة، ص 136.

(20) ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 174، ابن واصل : مفرج الكروب عن أخبار بني أيوب، ج 2، ص 185.

(21) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 58، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 175، ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 186.

(22) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 175، ابن كثير : البداية والنهاية، ج 12، ص 341.

(23) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 175، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 75، ابن كثير : البداية والنهاية، ج 12، ص 341، ستيفن رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 801-802، سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج 2، ص 800.

لجأ السلطان إلى القيام بإرسال حملات استطلاعية عبر الصحراء الاردنية لارهاب ارناط دون أن يصطدم به ليضمن عدم اعتدائه على قوافل الحجاج، فما أن اطمأن على وصول قافلة الحجاج ووصول قفل مصر الشنوي⁽²⁴⁾، حتى شرع السلطان في مهاجمة الكرك، حيث سار إليها في إثني عشر ألف فارس انتشروا في أراضي الكرك بحرقون ويخربون وارنات محصور في قلعة الكرك لا يستطيع أن يمنع أو يردّ بشيء على المسلمين⁽²⁵⁾.

وصل جيش مصري انضم إلى صلاح الدين في حصاره لقلعة الكرك، فوزع صلاح الدين الجيش إلى قسمين أحدهما يحاصر قلعة الكرك والآخر وجهه لمحصنة قلعة الشويك، واستمر المسلمون يضربون حصارهم حول الكرك لمدة شهرين⁽²⁶⁾، إلّا أنها لم تعلن استسلامها لهم.

واستفاد المسلمون من المعاهدات التي عقدها مع بعض أمراء الفرنج، ففي هذه الأثناء كلّف صلاح الدين ابنه الأفضل أن يقوم بتوجيه حملة عسكرية إلى عكا⁽²⁷⁾.

اختار الأفضل لهذه الحملة كلا من مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب حرّاز والزها، وصارم الدين قايمار النجمي أمير جيش دمشق، وبدر الدين دلدردم الياروقي أمير جيش حلب⁽²⁸⁾.

وأرسل الأفضل إلى ريموند يستأذنه بالسماح لرجال المسلمين باجتياز أراضي الجليل فوافق على ذلك بحكم المعاهدة التي بينه وبين المسلمين، واشترط عليهم ألاّ يلحقوا أضراراً بالمدن أو القرى التي يجتازها جيّشهم، ثم أمر بأن تغلق المدن التي في اقليم الجليل أبوابها حتى لا تعطي المسلمين فرصة للاستيلاء عليها.

علم مقدم الداوية (جبرار دي ريدفورت) أن قوات صلاح الدين ستجتاز اقليم الجليل، فجمع حوله مئات الفرنج والتقى بالمسلمين قرب صفورية في معركة ضارية نصر الله فيها المسلمين ودارت الدائرة على الفرنج فسقط أكثرهم قتلى بمن فيهم مقدم الاسبتارية وهو من

(24) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 74، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 75، يوسف غوانمة : امارّة الكرك الأيوبية، ص 153.

(25) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 59، ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 176، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 75، ستيفن رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 802، يوسف غوانمة : امارّة الكرك الأيوبية، ص 153.

(26) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 60-61، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 75، ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 186.

(27) ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 176، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 75، Lane-poole : Saladin, p. 203.

(28) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 61-62، ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 176، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 75.

أشهر فرسان الفرنج⁽²⁹⁾، فرفعت هذه المعركة معنويات المسلمين الذين تأهبوا لملاقاة الفرنج في الموقعة الفاصلة.

بعد الهزيمة التي حلت بالفرنج كان على أمرائهم استرضاء ريموند فنجحوا في إقناعه بالتعاون معهم ضد المسلمين، وأخذت جيوش الفرنج بالاستعداد، واتخذوا منطقة صفورية مكانا لتجمعهم، وبدأت حشودهم تزد إلى هناك استعدادا لمحاربة المسلمين⁽³⁰⁾ ومعهم صليب الصليبيات⁽³¹⁾.

ترك صلاح الدين حصار الكرك وأسرع متجها إلى طبرية حيث التقى بالجيوش الإسلامية، وهناك جاءت الأخبار باجتماع كلمة الفرنج ونقض ريموند لعده مع المسلمين، فجمع السلطان أمراء المسلمين وقادتهم ليستشيرهم في الأمر فأجمعوا على مواجهة الفرنج⁽³²⁾، وصار لا بد من اختيار الطريقة المناسبة للمعركة المقبلة لأن التخطيط أساس النجاح والنصر، خصوصا وأن هذه هي الفرصة التي كان يحلم بها السلطان صلاح الدين لرفع راية الجهاد وإعادة عز الإسلام والمسلمين.

اتبع صلاح الدين استراتيجية عسكرية استهدفت جرّ الفرنج إلى المكان الذي يريده ليوواجههم فيه، فزحف بجيشه إلى طبرية واقتحم المدينة وأحرقها باستثناء قلعتها التي عجز المسلمون من الاستيلاء عليها وقد احتمت بها (أشيفا) أميرة طرابلس وزوجة ريموند الثالث⁽³³⁾.

لقد أثار هجوم صلاح الدين على طبرية أمراء الفرنج وقادتهم، ف عقدوا مجلسا للحرب في عكا لبحث الموقف، وانقسم المجتتمعون بين من يريد الزحف إلى طبرية ومن يريد البقاء في عكا ليأتيه المسلمون خوفا من صعوبة الطريق وخطورتها، وعلى رأس هؤلاء ريموند الثالث

(29) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 63، ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 176، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 76، ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 187، Stevenson, W.D. : The Crusaders in the East (Beirut 1968), p. 243.

(30) العماد الأصفهاني : الفتح القسي، ص 73، ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 176، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 76، Stevenson : The Crusades in the East, p. 243.

(31) صليب الصليبيون هو صليب مرصع بالجواهر والياقوت في غلاف من الذهب، ويزعمون أن فيه قطعة من الخشب التي صلب عليها المسيح عليه السلام، فكانت له عندهم قدسية خاصة، ويحملونه معهم في المعارك وهو رمز للنصر عندهم (انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 178، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 78، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، قسم 1، ص 93، يوسف غوانمة : إمامة الكرك الأيوبية، ص 157).

(32) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 176-177.

(33) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 177، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، ج 2، ص 76.

صاحب طبرية، فقد أدرك خطورة الزحف إلى المسلمين، وخَوَّف الفرنج من ترك صفورية إلى المسلمين، فوصفه بعضهم بالجبن ومواطأة المسلمين⁽³⁴⁾.

ثم استقر رأي الفرنج على المسير إلى المسلمين فتوجهوا صوب طبرية في ظروف الحرِّ والشَّدة وصعوبة الطريق⁽³⁵⁾، وبهذا نجحت استراتيجية صلاح الدين في جرِّ الفرنج إلى المسلمين ليعانوا مشقات السفر والتعب، في وقت كان فيه المسلمون ينعمون بالراحة والظل ينتظرون قدوم العدو وساعة اللقاء.

لجأ صلاح الدين إلى استراتيجية أخرى لكسب المعركة نقضي بحرمان الصليبيين من الوصول إلى الماء، فترك حصار قلعة طبرية ونزل بجيش المسلمين على الماء إلى الغرب من طبرية عند قرية حطين⁽³⁶⁾.

وصل الصليبيون إلى حطين في ربيع الثاني سنة 583 هـ / تموز سنة 1187 م وعسكروا على هضبة تعرف باسم (قرون حطين)، وحال صلاح الدين وجيوشه بين الفرنج وبين الماء في طبرية التي صارت خلف المسلمين، وكان الحرَّ شديداً والعطش قد أخذ منهم كل مأخذ مع مشقات السفر من عكا إلى طبرية⁽³⁷⁾.

أمضى الصليبيون ليلة قاسية من شدة العطش والتعب، بينما كان المسلمون يكبرون ويهللون، ولكي يمسك صلاح الدين بزمام المبادرة في المعركة أمر جيوشه أن تتخذ من الليل ستارا للاحاطة بالصليبيين من كل جانب⁽³⁸⁾.

وبدأت المعركة في صبيحة اليوم التالي السبت 25 ربيع الثاني سنة 583 هـ / الرابع من تموز سنة 1187 م، فهجم المسلمون على عدوهم كأسد ينقضُّ على فريسة وقاتلوا قتال الأبطال، ورموا اعداءهم بالسهام، وانهزمت طائفة من الفرنج فلحق بها جمع من المسلمين وطاردهم حتى لم يبق منهم أحد، وقام المسلمون بإشعال النار في الهشيم، فاجتمع على الصليبيين حرُّ الشمس وحرُّ النار⁽³⁹⁾ والتعب الشديد وهجمات المسلمين التي كانت تنهال عليهم

(34) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 177، سميل ربي : الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، ص 177-179.

(35) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 77، ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 177، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 76.

(36) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج 8، ص 393، ابن واصل : مفرج الكروب، ج 1، ص 189.

(37) انظر ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 177، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 76، ابن كثير : البداية والنهاية، ج 12، ص 342، سميل : الحروب الصليبية، ص 179.

(38) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 79-80، ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 178.

(39) ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 178، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 77، ابن كثير : البداية والنهاية، ج 12، ص 422، يوسف غوانمة : أمارة الكرك الأيوبية، ص 156.

من كل جانب، واستمر الحال على ذلك حتى كان الفرنج يستسلمون للمسلمين فرادى وجماعات، واستولى المسلمون على صليبهم الأكبر (صليب الصلبوت)⁽⁴⁰⁾، فكان ذلك يوماً مشهوداً من أيام المسلمين التي وصفها المؤرخون وأسهبوا في وصفها، يقول العماد الأصفهاني : « حتى إذا أسفر الصباح، وسفر الصباح وفجر الفجر أنهار النهار، ونفّر النفير غراب الغبار، وانتبهت في الجفون الصوارم، والنهبت في الضوامر الضواري، وتيقظت الأوتار، وتفيظت النار، وسلّ الفرار⁽⁴¹⁾، وسلب القرار خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنّت القسي وغنت الأوتار، ورقصت مَرّان⁽⁴²⁾ المرار لجلاء عرائس الجلال ... فرجا الفرنج فرجا وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا، وبرح بهم حرّ الحرب فما يرحوا، وحملوا وهم ظماء، وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفرند⁽⁴³⁾ ماء، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية وأصمّتهم، وأعجزوا وأزعجوا، وأخرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا رُدّوا وأردّوا، وكلما ساروا وشدّوا أسروا وشدّوا ... »⁽⁴⁴⁾.

وأسر المسلمون عدداً كبيراً من الفرنج في هذه المعركة كان من بينهم جان لوزجنان ملك بيت المقدس، والبرنس أرناط أمير الكرك، وابن الهنفرى سيد تبنيين، وانب صاحب طبرية، ومقدم الداوية جيرار دي ريدفورت وصاحب جبيل⁽⁴⁵⁾، فاستقبلهم صلاح الدين استقبالا حسنا وأجلس ملك بيت المقدس إلى جانبه وقد أضناه العطش، ثم قدّم إليه إناء فيه ماءً مثلوج (بارد)، فشرب منه واعطى ما تبقى لارناط وشرب فغضب صلاح الدين وقال : (ان هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أمانى)⁽⁴⁶⁾، ثم التفت صلاح الدين إلى أرناط وأخذ يذكره بجرائمه وغدره بالمسلمين وقتلهم دون ذنب، ثم قتله بنفسه وفاءً بنذره⁽⁴⁷⁾، أما الآخرون فقد هدأ السلطان

(40) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 84، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 78، ابن كثير : البداية والنهاية، ج 12، ص 342، المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، قسم 1، ص 93.

(41) الغرار : حد السيف أو الرمح أو السهم (انظر ابن منظور : لسان العرب، ج 5، ص 16).

(42) مَرّان : الرماح الصلبة للندن (انظر ابن منظور : لسان العرب، ج 13، ص 403).

(43) الفرند : السيف الموشى (انظر ابن منظور : لسان العرب، ج 3، ص 335).

(44) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 78-79، وانظر أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 77.

(45) انظر العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 80، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 178، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 77، المقرئزي : السلوك، ج 1، قسم 1، ص 93، محسن محمد حسين : الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص 429.

(46) ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 178، وانظر أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 79، ابن كثير : البداية والنهاية، ج 12، ص 343.

(47) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 81، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 179، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج 8، ص 394.

من روعهم وأمر برعايتهم ورعاية باقي أسرى الفرنج باستثناء الداوية والاسبتارية الذين استاء منهم ومن تصرفاتهم فقد أمر بقتلهم⁽⁴⁸⁾.

لقد كان صلاح الدين موفقا في تخطيطه للمعركة، ولعبت الظروف التي مرّ بها الفرنج دورا هاما في قدرته على تحقيق أهدافه وبلوغ النصر، فصلاح الدين بهجومه على طبرية أراد أن يستثير الفرنج ويجبرهم على الزحف إليه لأنه رأى أن يذخر جهود المحاربين المسلمين ليوم اللقاء.

كما أراد أن يجبرهم إلى مكان يستطيع أن يرسم عليه خطته لخوض المعركة، فدرس المكان الذي ستشهده المعركة وخطط تحطيطا سليما، ووزع جنوده على المناطق الاستراتيجية التي ستلعب دورا حاسما ومهما في المعركة.

ورأى السلطان أن يستفيد من أماكن وجود الماء لاهميتها للمحاربين في يوم صائف، شديد الحرّ، وحجز الماء خلف المسلمين يعني تحكم المسلمين بمصادر الماء وهو عنصر من العناصر المهمة في الحرب.

كما رأى صلاح الدين ضرورة الاستفادة من عنصر المباذأة والمفاجأة ليمتلك زمام الأمور. وقد أفاد صلاح الدين من كل هذه العناصر، فقد أجبر الفرنج على مغادرة صفورية والمسير إلى طبرية ليتحملوا عناء السفر ومشقات الطريق في الصيف اللاهب، كما جرّهم إلى المكان الذين أرادوه أن يكون ساحة المعركة، حيث نزلوا في نقطة يريدها بالضبط، ورتب جنده بحيث سيطروا على مصادر الماء فما استطاع الفرنج الوصول إليها.

وما أن وصل الفرنج حتى فاجأهم صلاح الدين فلم يتمكنوا من بناء معسكرهم ليستلم زمام المبادرة وقيل أن يلتقط الفرنج أنفاسهم، ودارت رحى المعركة وهم يعانون مشقات السفر والتعب والحرّ الشديد والعطش، كما أحاط بهم صلاح الدين بجيشه إحاطة الدائرة بقطرها كما يقول ابن الأثير⁽⁴⁹⁾، فأصبحوا محصورين من كل اتجاه، وفوق هذا كله أحرق المسلمون الهشيم المحيط بمكان وجودهم على أرض المعركة فكانت النار تلتفح وجوههم، وكان يوما عصيبا على أعداء الله لم يشهدوا مثله قبل ذلك، ومن كان يحاول الهرب منهم لم يكن يجد لنفسه طريقا يهرب منها، فיעلن استلامه للمسلمين، وتعرّض معظم جند الفرنج للنقل أو الأسر ولم ينج منهم إلا القليل، فما مرّ على أعداء الله نكبة أكبر مما أصابهم يوم حطين.

لقد ترتب على هذه المعركة نتائج وآثار هامة جدا، فقد كسرت شوكة أعداء الاسلام الذين كانوا يصولون ويجولون في بلاد المسلمين منذ دخولهم بلاد الشام في أول حملة صليبية سنة

(48) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 77، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، قسم 1، ص 93.

(49) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 178.

490 هـ / 1096 م. وتمكن المسلمون من تحطيم القوة العسكرية للفرنجة فأشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله : (وكثر القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتل لا يظن أنهم أسروا واحداً ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الواقعة)⁽⁵⁰⁾.

وتحول المسلمون من مدافعين عن البلاد التي كانت بأيديهم إلى مهاجمين بقوة لتحرير البلاد التي احتلها الفرنج، وعادتها إلى حضيرة الدولة الإسلامية، فجاءت أول ثمرات هذه المعركة باستسلام قلعة طبرية في اليوم التالي للمعركة⁽⁵¹⁾. ثم توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى عكا، وطلب أهلها الأمان على أنفسهم فأمنهم ودخلها في جمادي الأولى سنة 583 هـ / تموز سنة 1187 م وأطلق من بها من أساري المسلمين⁽⁵²⁾.

على أن أهم ما ترتب على انتصار المسلمين في معركة حطين هو التوجه لتحرير بيت المقدس التي طالما انتظر المسلمون عودتها، وتطهيرها من ضلالات الشرك والافك، فتم ذلك للمسلمين في رجب سنة 583 هـ / تشرين الأول سنة 1187 م⁽⁵³⁾.

وضرب صلاح الدين بأخلاقه وحسن تعامله مثلاً رائعاً، إذ عامل الفرنج معاملة طيبة، ولم يفعل بهم كما فعل الفرنج بالمسلمين يوم دخلوا بيت المقدس قبل مائة عام⁽⁵⁴⁾.

وبهذا رسمت حطين طريق الخلاص من الاستعمار الفرنجي لبلاد المسلمين، وهيات لهم ظروف حياة جديدة لإعادة البناء الإسلامي، وتوحيد بلاد المسلمين من العراق إلى مصر ومن اليمن إلى الشام، وحرر المسلمون البيت المقدس فدخلها صلاح الدين وكسر الصليبان التي فيها وأحرق دار الداوية، وعمر المسجد الأقصى⁽⁵⁵⁾، فهلل المسلمون فرحاً وكبروا على مساجدهم من جديد.

(50) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 178.

(51) العماد الأصفهانى : الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 85، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 179، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص 79، ابن كثير : البداية والنهاية، ج 12، ص 343.

(52) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج 8، ص 494-495، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 86، ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 201، سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج 2، ص 814.

(53) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 183، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج 8، ص 397، أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 92-93.

(54) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 184، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج 8، ص 397، ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 752-753،

Lane-poole : Saladin, p. 233.

(55) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان، ج 8، ص 397، وانظر لمزيد من التفاصيل ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 9، ص 184-185.

قائمة المصادر والمراجع

- 1 - ابن الأثير (ت 630 هـ / 1232 م)، الكامل في التاريخ، دار الفكر، (بيروت 1978 م).
- 2 - ابن جبير (ت 614 هـ / 1217 م)، الرحلة، دار صادر (بيروت 1988 م).
- 3 - ابن سعيد (ت 685 هـ / 1286 م)، النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب، (القاهرة 1970 م).
- 4 - ابن شداد (ت 632 هـ / 1234 م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (الاسكندرية).
- 5 - ابن كثير (ت 774 هـ / 1372 م)، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، (بيروت 1988 م).
- 6 - ابن منظور (ت 711 هـ / 1311 م)، لسان العرب، دار صادر (بيروت).
- 7 - ابن وصال (ت 697 هـ / 1297 م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، المطبعة الأميرية (القاهرة 1957 م).
- 8 - أبو شامة (ت 665 هـ / 1267 م)، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل (بيروت).
- 9 - سبط بن الجوزي (ت 654 هـ / 1256 م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، (الهند 1951 م).
- 10 - ستيفن رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة (بيروت 1968 م).
- 11 - سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة 1963 م).
- 12 - سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية (بيروت 1972 م).
- 13 - سميل. ر. سي، الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت 1982 م).
- 14 - العماد الأصفهاني (ت 597 هـ / 1201 م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر.
- 15 - محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة (بيروت 1986 م).
- 16 - المقرئزي (ت 845 هـ / 1441 م)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة 1956 م).
- 17 - ياقوت الحموي (ت 626 هـ / 1229 م)، معجم البلدان، دار احياء التراث العربي (بيروت).

- 18 - يوسف درويش غوانمة، امارة الكرك الأيوبية، جمعية عمال المطابع التعاونية (عمان 1980 م).
- Besant, palmer : Jerusalem, the City of Herod and Saladin, (London _ 19 1899).
- King. E.J. : The Knights Hospitallers in the Holy Land, (London 1931). _ 20
- Lane-poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, (Beirut _ 21 1964).
- Stevenson. W.D. : The Crusades in the East, (Beirut 1968). _ 22